التعدد والسكون، قراءة في فكر نيتشه.

أ/ نور الدين بوراراش
جامعة الجزائر(2)

تاريخ الإرسال: 2018-02-09 تاريخ القبول:05-07-2018
تاريخ النشر: جويلية 2018

ملخص:

يتناول هذا المقال إشكاليتين أساسيتين حول شخص نيتشه وفكره، الأولى هل نقرأ نيتشه بدمج فلسفته مع حياته دمجا لا يسمح بتصور الأولى عن الثانية، أم بالفصل بينهما فصلا نسبيا أو حتى كليا؟ والثانية هل نقرأه باعتباره فيلسوفا بكامل المؤهلات والأوصاف التي نجدها لدى كانط أو هيجل، أم نقرأه بوصفه ممثلا لتيار أدبي نقدي مارس حدوسه على ثقافة الغرب وفق منظور أدبي خالص؟
الكلمات المفتاحية: نيتشه، التأويل، الصيرورة الببليوغرافية، المعاش، الفلسفة، الأدب.

Abstract

This paper will deal with two fundamental problems about Nietzsche and his thought. The first one is whether reading Nietzsche by combining his philosophy with his life, so that the former cannot be conceived without the latter, or by separating both sides either partly or even completely? The second one is whether reading Nietzsche as a philosopher like Kant and Hegel, or as a representative of a literary trend which practices his critical intuitions on the culture of the West through a pure literary perspective?
Keywords: Nietzsche, interpretation, bibliographical process, living, philosophy, literature

تعد قراءة نيتشه من الإشكالات التي برزت في الفكر الغربي المعاصر في فرنسا، ألمانيا وإيطاليا، تزعمها فلاسفة أقطاب وأساتذة الفلسفة وعلم النفس في مختلف الجامعات، حيث حاولوا الولوج الى تخوم فكره لتحديد موقعه على الخارطة الفكرية بدأً من اللحظة الأفلاطونية إلى غاية اللحظة المعاصرة، مع إدراك مُسبق بخطورة المزالق التي تحتويها حواف نيتشه – النص.[1] فالبنية التركيبية المتميزة لتآليفهِ والاكتشافات النفسية الضخمة التي ما فتئت تظهر تترصّد كل خطوة قد يُقدموا عليها، كل هذا من شأنه أن يُصعّب مهمة أي مؤول أو مفسر لفكره. يقول لويس وايتبيك في كتابه: « **six secular philosophers** » : « من الصعب أن نفهم نيتشه لأنه من السهل أن نسيء فهمه، ومن السهل أن نقرأ نيتشه لأن حِكمه، ورموزه الحية، وكلماته المنمقة، وأشعاره الرائعة تجعل قراءته لا ننساها، ولكن من السهل أن نستوعبها.»[2]، ولعل عبارة بيير بودو " P.

Boudot" كفيلة أيضا بأن تبرّز ذلك، حيث وصف فكره بأنه « فلسفة نظامية للصمت والإرهاب.».[3] تحوي على كل شيء: « على بُحيرات وشراك للطيور المتسرّعة، وبصورة مستمرة تحريض مستّتر لقلب كل التقديرات المعتاد عليها، ولكل العادات التقديرية.»[4]. تغازل لتكسب القارئ وأحيانا تجعله يضيع، ما يعني أنها تتطلّب منهجا يفوق حدود التأويل وتشترط ميكانيزما معقدا من الاصطلاحات والمفاهيم.

ومن بين الإشكالات التي حاول المؤولون الإجابة عنها هي:

- كيف نقرأ نيتشه؟ هل بدمج فلسفته مع حياته دمجا لا يسمح بتصّور الأولى دون الثانية، أم بالفصل بينهما فصلا نسبيا أو حتى كليا؟
- وهل نقرأ نيتشه على طريقة " ديلتاي"أم على طريقة " هايدجر"؟ أي هل باعتباره ممثلا لتيار أدبي حدسي نقدي مارس حدوسه على ثقافة الغرب وفق منظور أدبي كان سائد لدى رواد الأدب السابقين أم باعتباره فيلسوف الأحقية مثله مثل أرسطو أو كانط أو هيجل؟

بخصوص الإشكالية الأولى، نعترف أن المسألة معقّدة للغاية، لأننا هنا إزاء عاملين جرّت العادة على فصلهما لدى الفلاسفة الغربيين لفترات طويلة هما المُعاش Le vécu والفكر Le thématisé[5]، فمسألة الحياة الشخصية لأفلاطون مثلا لم تعتبر وفي كل التأويلات والدراسات المنجزة بخصوصه بعدا أساسيا ينبغي الاستعانة به لتوضيح أو تعميق أو تفسير فكرة من أفكاره، في حين أن هذا الفصل حسب العديد من المهتمين بفكر نيتشه يمكن أن يُحدِث شرخا يستحيل تجاوزه. وفي هذا الاتجاه يرى الفيلسوف الإنساني "كارل ياسبرز" أن الاهتمام بفكر نيتشه يُحتّم بخلاف كبار الفلاسفة الآخرين أن نبدأ من واقعية حياته[6]، ويحدّد طريقتين اثنتين كخيارات:

إما أن ننظّم أفكار نيتشه في وحدة عضوية، دون الاهتمام بظهورها الكرونولوجي.

أو أن ندرسها بإتباع تطوّرها عبر عشرات السنين.

في الحالة الأولى: مفهوم النظام اللازمني هو الخيط المرشد لبحث المكان اللازمني لكل فكرة.

أما الحالة الثانية: هو تطور الحياة، والتفكير وكذلك المرض من يسمح لنا بموقعة كل فكرة في مجمل صيرورتها، فأية فكرة لا يمكن فهمها بشكل كامل إلا إذا عرفنا اللحظة أين كُتبت فيها.

يحاول ياسبرز بهذه الطريقة الأخيرة أن يحدّد مشكلته بتحديده في النيتشوية ثلاثة أنواع من الأفكار:

أفكار أساسية: نجدها دائما متطابقة، وتظهر مهيمنة منذ شبابه الأول، وهي أكثرها.

أما الأخرى: فتظهر في خضّم التطور الفكري للفيلسوف.

والثالثة حسب ياسبرز: تظهر لفترة زمنية ثم لا تلبث أن تسقط في النسيان، وهي قليلة وفريدة جدا، لهذا – حسبه- يجب على فكر نيتشه أن يُمَوقَع في هذه الصيرورة النظامية والبيليوغرافية[7]، منه لا يجب إهمال الحياة، ولا تناولها مستقلة عن مؤلفاته، ويسقط هذا على مرض نيتشه وتقلباته النفسية أيضا، إذ « لا ينبغي النظر إلى خطاب على أنّه أسوأ أو أحسن ما دام الخطيب يشرب عادة قارورة من الخمر ليهزم بها القلق»[8].

حول هذه المشكلة يمكن الاستعانة برأي نيتشه ذاته ففي رسالة لصديقته "لوفون سالومي"، وهي منهمكة في كتابة أول محاولة (Essai) حول فريدريك نيتشه كتب قائلا:

« فكرتك التي ترمي إلى ربط الأنساق الفلسفية بالأفعال الشخصية لأصحابها هي فعلا فكرة روح-أخت une âme- sœur، أنا نفسي درّست بهذه الطريقة تاريخ الفلسفة القديمة، وأقول بشكل إرادي لمستمعي: هذا النسق قد مات، لكن الشخصية التي تقف وراءه لا يمكن رفضها، يستحيل قتلها: مثل أفلاطون»[9]. إذن، حسب هذا الطرح، فالمُعاش هو دائما أصل محتوى أعمال نيتشه، وأفكاره

وفي كل مراحل حياته من الطفولة إلى البلوغ مرتبطة ارتباطا طبيعيا بالحالة الصحية والنفسية للفيلسوف، الأمر الذي يشكّل في مجمله تأكيدا على أن المُعاش والفكر، مرتبطان ارتباط المنبع والساقية.

هذه المعاينة تُحيل إلى معاينة أخرى مؤكِّدةً استحالة الفصل بين المُعاش والموضوع الفكري، وقد نَمَت شيئا فشيئا في أذهان الباحثين وهي استحالة الفصل بين تعددية المعاش ومواضيعها لأنها ببساطة كألوان قوس قزح، ليس للناظر القدرة على الفصل بينها.

عكس ياسبرز يظهر "أويغن فنك"[10] بتصوّر مُخالف، إذْ يرى في نيتشه أحد وجوه القدر في تاريخ "الغرب" يرغمنا بقناعة على اتخاذ قرارات نهائية[11]. لذلك فالموقف السليم، هو أن نمتحن مؤلفاته لمعرفة المواضيع الأساسية دون الرجوع إلى تاريخ حياته، لأنها ببساطة حياة تخفي نموذجية، فهو القائل: « إني أكثر الذّين يتخفون خفاءً».[12] ضفْ إلى ذلك أنّ الانطلاق من سيرة حياته لمحاولة استخلاص وتفسير النتائج والحياة التي ابتدعته[13] تؤدي إلى النظر إلى المؤلف نظرة توهمية، فلا يعتبرونه من بعد الإنسان "المتجاوِز" الذي أعلن عنه في "هكذا تكلم زاردشت"، بل على العكس، فأية دراسة تنطلق من السيرة الذاتية للفيلسوف، ومن سيكولوجيته المرهفة، ليست لها إلا أن تُظهر نيتشه كانسان يتألم أشدّ الألم، وكائن محطم تقلبّته الحياة يمينا وشمالا. فتُفسر بُغضه الوحشي والشيطاني لكل ما هو مسيحي على أنه عجز عن التخلص من المسيحية، ونقده للأخلاق ولا أخلاقيته ناتجة عن حسه الأخلاقي واستقامته المطلقة، ونشيده للحياة المليئة وللصحة الريانة، على أنه مجرّد تصعيد للبؤس وصنوف الحرمان الذي ناله.[14]

يعترف فنك أن نيتشه يجرنا بسحره إلى شخصيته بالذات، فكُتبه سُطرت جميعها بأسلوب المذكرات، إذ يحدثنا بصورة لا تُطاق عن نفسه، وعن تجاربه الروحية، وعن مرضه وعن ميوله.[15] لكن التحري النفسي لن يتوصل في يوم ما إلى حل لغز حياة نيتشه، وهذه الطريقة في القراءة تحدّد صورة نيتشه تبعًا لمظاهر خارجية في آثاره أكثر مما لنواة فلسفته.

كونا والقراءة المفتوحة:

من بين القراءات التي عملت على تجاوز القضية نجد قراءة الفنلندي "تارمو كونا"،[16]حيث أفرّد لذلك كتابا عنوانهُ **"نيتشه أو روح التناقض" Nietzsche ou l'esprit de contradiction** ".

أشار في مقدمة هذا الأخير إلى وجود صنفين من المفكرين:

الأول: يتّخذ من نسق متكامل مشربا لهم ومصدر إلهام خاص، لكن يوجد نوع آخر من المفكرين: فنانين أكثر من كونهم فلاسفة، نجد فكرهم في حركة دائمة، لفهمهم يجب إتباع – قبل كل شيء- حركة معينة، بل لعبة لا محدودة من الفواصل والألوان، بدل مخطط موحد[17]، وهو حال نيتشه، الذي بقدر ما هو مُفكر الاستفهامات، فهو فيلسوف الأجوبة الفاصلة، أفكاره جنينية، متشذّرة ناتجة عن رأس فلسفية مولعة وفنانة تَنْشد اللاتكامل النهائي لنظرته للعالم، وإنْ كان ذلك بغير ضعف، تُتَوجها لغة لا منطقية، تفتقد إلى الدقة السيمونطيقية الخاصة بالوضعيين الأنجلوسكسونيين.

إن عند نيتشه مثلما حال الذكاء البشري ميل نحو التناسق، نحو الوحدة unité لكنها تبقى مع فيلسوفنا مهدّدة دوما بواسطة دوافع ونزوات متجددة، عبر الشك وحركات التردّد، وبذلك تظهر نظرته للعالم وكأنها تتقطع في لعبة العقد "nuances " والتناقضات؛ إذن هي كُليانية متطايرة ومتحركة غير مكتملة كأي فكر حي.

تأويل كانط أو هيجل نادرا ما يصطدم بفقرات تستلزم تأويلا أدبيا، في حين مع نيتشه، الأدب والشعر حاضرين ليس فقط في "هكذا تكلم زاردشت"، بل أيضا في مجمل أشعاره وشذراته. إن

التهكم والغموض والسخرية، روح المفارقة... كلها تحضر في النصوص التي تبدو فلسفية خالصة. وهو ما يجعلنا نعلن صراحة ونقول أن الخيار الاستيتيقي والمبدأ الأسلوبي هما من يحكمان ما يقوله الفيلسوف.[18]

ويرى "كونا" أن الطريقة المثلى للّم شمل هذا الشتات اللامنطقي، هو أنْ لا يتوقف المؤول في طلب معنى استعمال لفظ أو ذاك وأن يتساءل، ما نصيب الاستعارة، الهزل والمفارقة، الذات النيتشوية وما هو تأثير الحساب الأسلوبي في عبارة ما؟[19] وما نصيب السقراطية المستفزّة في نيتشه؟

نتيجة كل هذا يرفض "كونا" التأويل الفلسفي المحض مبرّرا ذلك بأنّهُ عبثية، فآثر إتباع فكر نيتشه في إطار كرونولوجي، وامتحان تأويل نيتشه الخاص لكتبه، فقسّم تطور فكره إلى ثلاثة مراحل[20]:

الأولى: إلى غاية 1876م

الثانية: من 1876م إلى 1881م

الثالثة: من 1882م إلى 1888م[21].

والتأويل الذي يقترحه كونا يظهرُ فسيفسائيا، يتلاءم مع انعراجية ونسبية فكر نيتشه، وحسبه فهو المنهج الوحيد الذي يفلت من الأخلاقوية في التأويل، بل يفلت من الاتهام العلقمي الذي قام به "جورج لوكاتش"[22]، ومن النقد اللاذع والسطحي الذي قام به "برتراند راسل"[23]، ومن الدفاع الذي اعتمده "والتر كوفمان"[24]، ومن المرافعة الحذرة لياسبرز وهايدجر[25].

يقول كونا: « نُريد أن نكون نقديين، بل أكثر من نقديين، أكثر من أغلب الشُراح المعروفين... ولا نريد تحليلاً نفسيا لأنّنا لا نريد أن نرى فكر نيتشه إلا من زاوية مَرَضه، فالخطر جليل حين يتم تقزيم أصالته في قضية ما».[26]

لذلك حسب تارمو كونا « لا يجب على المؤول أن يتأخر لا في ربط أجزاء سيرته ولا في مسح لوحة زمانه، كلما اقتضت الظروف».[27]

هذا بخصوص القضية الأولى، أما الإشكالية الثانية، فهي تتعلّق أساسا باستقبال نيتشه في الثقافة الأوروبية، وتصعدُ من نهاية القرن 19، إلى غاية الستينات من القرن الماضي حيث تظهر النقلة الثورية للموقف التأويلي، وهنا تنازعت نيتشه نزعتين أساسيتين هما : النزعة الأدبية، والنزعة الفلسفية.

تزّعم النزعة الأولى الفيلسوف الألماني فلهلم ديلتاي الذي كان معاصرا لنيتشه، واستقبلهُ استقبالا" أدبيا" وبشكل عام ثقافي في المعنى النقدي للثقافة، لقد اهتم المثقفون آنذاك بكتابات نيتشه، وعالجوها كمؤلفات شعرية وأدبية وإستيتيقية، أو في أحسن الأحوال كجدل عام يحارب القيّم التقليدية[28]. فهو بالأحرى تفكير حول الإيديولوجيا، ما أدى إلى وضعه بجانب كارليل (Carlyle)، امرسن (Emerson) ، روسكين (Ruskin) وتولستوي (Tolstoï) ومايترلنك (Maeterlinck)، بمعنى بجانب الفلاسفة الأدباء الذين يتحركون في أفق مفتوح من طرف شوبنهاور.[29]

وبخصوص هؤلاء الأدباء، كتب ديلتاي: «هذا الصنف من الأدب ومن الإقناع ينوب البرهنة، وهو يُنْسب إلى فن السفسطائيين والخطباء القدماء الذّين احتقرهم أفلاطون وحاول إبعادهم من الفلسفة..نظرهم يبقى مثبتا على غموض الحياة، ويفقدون كل أمل في حله بواسطة ميتافيزيقا شاملة تعتمد على نظرية وحدة العالم، إذ يجب تأويل الحياة بإعانة من الحياة ذاتها. هذا هو إذن الفكر الذي يربط فلاسفة الحياة إلى تجربة العالم وإلى الشعر.»[30].

طرح ديلتاي هنا يظهر وكأنهُ يبرّر القراءة الأدبية للنص النيتشوي المناقض للمقاربة الميتافيزيقية دون استدعاء لمرجعية الوجود. إنّه يمتنع بشكل غير محتشم عن بناء منظومة تأسيسية حول الوجود، كما أنّهُ يعدِل عن الادعاء العلمي، وعن كل ادعاء بالصحة والتأسيس، وتفسيره المُعطى للحياة، نجده لا منهجي، ولكنه معبّر وإيعازي.

ولو شئنا أن نؤكد أكثر على ذلك نقول أنّ تكوين نيتشه لم يكن فلسفيا بالاحتراف، إذ لم يتردّد أبدا على كلية فلسفة في حياته الدراسية. بل تكوينه كان تكوينا أدبيا، فيلولوجيا مختصّا في الدراسات الكلاسيكية. تَوجهُهُ يعتني بدراسة الآداب القديمة ولغاتها (اليونانية واللاتينية) دراسة تاريخية نقديّة؛ بالاعتماد على التدقيق في النصوص والتحقيق فيها والمقارنة بين المصطلحات والعبارات وتاريخ تطوّرها والتغيّرات التي طرأت عليها عبر العصور.

أما عن "إشكالية الثقافة"، التي أشار إليها ديلتاي وأوردناها أعلاه، فقد طرحت عنده وبشكل أساسي، عانى نيتشه منها ورافع من أجلها بشكل مثير ما يجعل أي قارئ لفكره يكتشف أن الثقافة قد اعتبرها المشكل الأساسي الذي ما فتئ يصرخ على أنه كذلك، فلم تلق تحذيراته سوى أذانا صماء في أوربا، أذان سلبتها العدمية قدرتها على إدراك الخطر الداهم الذي يترصدها.[31]

ينطلق كريستوف باروني في كتابه المعنون بـ: **نيتشه مربي – من الإنسان إلى الإنسان الأعلى-** من الزاوية نفسها فيذهب ضمنيا إلى ضرورة فهم نيتشه في إطار تصوّره النقدي للثقافة والذي نجده في شكل خيط هادي ينطلق من كتباته الأولى زمن الشباب إلى غاية آخر الكتابات**.** ففي المرحلة الأولى، كانت مشكلة الثقافة هذه تخص الشعب الألماني، هي فترة شجع فيها نيتشه الطرح الدرامي التراجيدي الفاجنري- الشوبنهاوري، وقد كتب نصوصا حارة كصرخة إنذار للألمان، ورأى أنه من العار عليهم تجاهل الإلهام والتجديد الذي حمله فاجنر، وأن لا يستقبلوا إنتاجه بحرارة. كما أظهر رثاءه على الروح الألمانية التي تبدلت وأمست من دون ثقافة لما فضّلت الجوقة اللوثرية التي ورثوها عن النهضة على القيّم الديونيزية. ويسعى نيتشه هنا – حسب كريستوف باروني- إلى إيجاد تربية طريقها هو الفن.[32]

في المرحلة الثانية، تتسع أفاق نيتشه وبصورة ملحوظة، ويصبح مشكل الثقافة لا يخص ألمانيا فحسب، بل أوربا بكاملها، وهنا لم ينتقد ألمانيا كأمة ارتكبت أخطاء جسيمة ومشئومة بخصوص الثقافة لما سقطت ضحية تحريضات بسمارك في حملاته السياسية بدل المساهمة في التأسيس لنهضة فنية، والحال نفسها بخصوص أوربا التي أصبحت عنصرية.. وهنا نيتشه ناد بثقافة عالية خالية من أي خصوصية وطنية ومن كل راهنية أو أداتية ضيّقة.

أما المرحلة الثالثة فتظهر جلية بدأ من **"إنسان مفرط في إنسانيته".** حيث بدأ في امتهان النقد وهدم الأصنام والإتيان بمنظورات لقيّم ثقافية جديدة تنوب مقام المثاليات الفاسدة. وكانت هذه المرحلة الثالثة والقصوى لتفكير نيتشه حول الثقافة وهي تظم الوعي الوجودي لأزمة الحضارة. ونيتشه كان يؤكد كعنوان لفلسفته أن "الثقافة ليست ديكورا للوجود" بل هي تألق مع الحياة.[33]

عكس ديلتاي، تظهر القراءة الهيدجرية لنيتشه، وهي حسب جياني فاتيمو شكّلت وصفة ordonnance لأغلب التأويلات المعاصرة، رغم تشعب مناهجها ونتائجها، بل تُسجّل تحولا في الدراسات النيتشوية.[34] ولقد لتف حول هيدجر العديد من المفكرين المشاهير قاموا بفحص مجموع مؤلفات نيتشه، وذهبوا إلى التأكيد بأن أعماله لا يمكن أن تُقرأ فقط كإبداع أدبي أو شعري بل كجزء من التراث الذي يجب أن يمنح له مقاما فلسفيا ويعاد بالتدريج إدماجه وتوطينه في قلب الفكر الفلسفي الغربي.[35]

ففي كتابه حول **"نيتشه"** الذي ألّفه مابين 1936-1946، والمنشور عام 1961 رأى هيدجر أنّه يجب وضع نيتشه في علاقة مع أرسطو كفيلسوف الأحقية بكل ما يحملهُ المصطلح من دلالات، ببساطة لأن نيتشه وَضَعَ في مركز فكره مشكلة رئيسية أكثر قدما هي مسألة الوجود la question de l'être. وبوصفه فيلسوف الأحقية، فقد صنع لنفسه في تاريخ الفلسفة مكانا خصوصيا هو مكان انتقالي، حسب هيدجر هو مكان المفكّر الذي جعل حدا للتيار القديم للفكر التقليدي الأوروبي، ويستهل طورا جديدا في تطوره ويهيئ الانتقال المباشر نحو أنطولوجيا أساسية. وهيدجر لم يدّخر جهدا أو لم يتوان في مؤلفاته في الإحالة إلى الميتافيزيقي العظيم والأخير، ويمنحه بالغ الاهتمام خاصة في كتابيه **".نيتشه ج 1 و ج 2."** و **" الدروب التي لا تؤدي إلى أي مكان"**، ويَستخدم نصوص نيتشه كما لو كانت وتر قوس، كي يطلق نحو الهدف سهم تفكيره.[36] ومثل هذا النحو من القراءة التي تعددت المواقف بخصوصها تعود أساسا إلى الإيمان بفكرة الصيرورة الحياتية لفلسفة نيتشه والتي تمثل أيضا تحققا نهائيا للميتافيزيقا في ظل التقنية.

بين ديلتاي وهيدجر. أين نضع نيتشه؟

لاشك أن لكلا من ديلتاي وهيدجر مُسوغاتهما التي اعتبراها رئيسية ومحدّدة في وصف الزّي الذي لبسهُ نيتشه في عرض فكره. وهو فعلا ما يشكل صعوبة، بل إشكالا فلسفيا بشكله المحض، وحسب جياني فاتيمو، فالأمر لا يتعلق بإيجاد وجهات نظر تأويلية تمحو المفارقة وتتخلص من التناقض بين المقاربتين الأدبية الخاصة بديلتاي والأنطولوجية الخاصة بهيدجر، بل يجب إيجاد تشابهات قيمية بين المقاربتين نستطيع أن نُدرجها ضمن وصف لكل نجاحات نيتشه.[38]

والقارئ الذي يريد تفسير محور التناقض هذا، عليه أن يأخذ بعين الاعتبار شرطين أساسيين وعاملين مهمين هما:

- أولا : معرفة أصالة النص الذي يكون موضوع تفكيرهما.
- ثانيا: المقولات المنهجية المستعملة للمساءلة، وفهم المعنى الفلسفي للنصوص.[39]

فقراءة هيدجر تنطلق من نقطة ارتكاز اختارها بحذر شديد، وربما بروح تفتقد إلى النزاهة التامة، يصفها لنا بكونها تأثّر قليل وقناعة كبيرة، فمن جهة إقصاء، ومن جهة أخرى تمجيد وتعظيم من منطلق أن «...الفلسفة الحقة، يجب البحث عنها في كتاباته المنشورة بعد موته، فكل ما نشره نيتشه شخصيا ينتسب إلى" خارج دائرة المؤلفات".».[40]

والقارئ أو المؤوّل لنيتشه في نظر هيدجر، لا أصالة ولا ثبات لفهمه منذ اللحظة التي ينطلق ويركّز فيها كامل اهتمامه على كتابات لم تُنشر بعد وفاته.[41]

أما ديلتاي المعاصر لنيتشه، والمتتبّع لكرونولوجيا التأليف الخاصة به، فمن دون شك أنّه يستلهم الرؤية الاستيتقية المتجاوزة للتشاؤم ولقيم العدمية وانتقاداته اللاذعة للفكر الخاص بالألمان، وتنبؤه بالنتائج التي تترتّب عن الوضع الذي يعيشه الغرب على المستويين الواقعي والتاريخي، هو من جعله يعتمد على النصوص الأولى من فكر نيتشه باعتبارها تخدم فكرة الحياة، دون إغفال طريقة الكتابة الناتجة عن التكوين الفيلولوجي للفيلسوف.

عموما ، فالشيء الأكيد الذي يمكن أن يخرجنا من مثل هذا الانشطار هو أن نفهم مثلما صرح "جاك دريدا أن « مستقبل نيتشه- النص لم يُقفل».[43] ذلك أن ازدواجيات هذا النص، وتعدّد معانيه تجعله قابلا للكتابة scriptible، وقابلا لأن تُعاد كتاباته وتأويله ضمن سياقات متعدّدة ومتجدّدة.[44] هذه هي الطريقة الملائمة للتعامل مع فكر متعدد الأشكال Polymorphique ينتمي إلى عائلة الحرباوات، بدل انتمائه إلى الحكمة التقليدية المتصّفة دائما بالوحدة الدقيقة.

كما نعتقد أن المَخْرَج الملائم لمثل هذه الإشكالية، يكمن في ضرورة اعترافنا الكامل ببراعة الفيلسوف في جمعه بين التحديد المفهومي للخطاب الفلسفي والطابع الانفعالي الحيوي للخطاب الشعري؛ ما جعلهُ يحضى في الوقت نفسه بالمكانة الفلسفية نفسها التي لأرسطو أو ديكارت أو سبينوزا، مثلما حضي أيضا بمكانة تُنافس أكبر الشعراء حداسة ونبوغا مثل ألجيري دانتي وغوتة وشيللر.. إذن من خلال تجربة نيتشه تتوضّح القرابة بين ما هو فلسفي وما هو شعري وتتأكّد على يديه مسألة عليا مفادها: أنْ لا وجود لتعريف للفلسفة خارج ما هو شعري. وأن الإفصاح الفلسفي ينبع من النبع الذي نبع منه الإفصاح الشعري والأدبي. ذلك ما يجعل الفلسفة مع نيتشه لا تتعقّد في مجاورتها للشعر، تنزل معه وتصعد معه أيضا.

يؤكد ألكسندر نيهاماس وجود التباس يلف علاقة نيتشه بالفلسفة وغموض مثير يستحوذ على القارئ في رّد نَسَبِهِ إلى الأدب أو إلى الفلسفة، ويرى أن هذا الغموض مرده لجوء نيتشه إلى تنوع غير متناهي من الأجناس والأساليب الأدبية، فيقول: «أن تنوعاته الأسلوبية تلعب دورا فلسفيا» وجماليته هي من حجبت التميّز الفلسفي.[45] فحين نقرأ لنيتشه نجده في شكل ورشة غير مكتملة لبناء لم تنته فيه الأعمال.

كما أنه من الأمور التي تم تجاهلها بخصوص فيلسوف العود هي كونه "فيلسوف فنان" (philosophe artiste) وفلسفته "فلسفة فنان"، وهذا النموذج من الفلسفة يتميز بعدة صفات تجعل من يتناولها مجبرا على إدراك مجموعة من المسائل ولنقل الأبجديات الضرورية والملزمة أهمها أن فلسفته هذه لا تظهر عبر الوسائل العقلانية المنطقية، بل تظهر من خلال بعدها الذاتي، هي الوعي بالوعي نفسه دون تفسيرها من زاوية نرجسية. إذ بالأحرى يجب تفسيرها من خلال العين الثالثة التي تختلف عن عين الفكر وعين التجريب معا...الأمر الثاني الذي يجب أخذه بعين الحسبان مفاده أنها فلسفة متعلقة باللغة تعلقا ينفي إمكان الفصل بينهما، بالتالي فهي تعتمد على فعل الإغراء الشعري واللغوي.

وكنتيجة موضعية نقول أن مثل هذه القضايا التي بقدر ما تمثل نزوعا نحو تشنج مفاهيمي يقف على عتبة كل محاولة لفهم وتشكيل تصور فعلي (إن أمكن) للفيلسوف، فإنها تفتح مجالا واسعا لقراءات مدهشة ولإمكانات لم نشهدها، تتغذى من خلال فعل القراءة لنص أصيل قلق في حالة دوران انفلاتي دائم. إنه تحد لمحاولات الفهم الشاملة ولكل مسعى لفرض الحصار على معاني ودلالات المتن النيتشوي. هذا التعدد الذي هو فن إظهار تعدد الألوان في مساحة غير محددة هي المنظورية ذاتها متجلية للعيان، تبرّر الطلبية الرسمية لنيتشه حين قال: « تعلموا كيف تقرؤوني.». وهذا الأمر هو ما يدفع إلى فهم خصائص النص النيتشوي لإدراك معنى الانفتاحية الفلسفية وما يمكن أن تمنحه لنا من رهانات.

الهوامش:

1. لعل ما يبرّر قولنا هذا هو أن:

أ - أسلوب نيتشه الذي يستخدمه باستثناء بعض النصوص، وهو مجموعة من الحكم والفقرات تبدوا في ظاهرها مفككة ومبعثرة يستحيل أن تؤلف كلا واحدا، والغواية الكبرى لمفسر نيتشه أن يتصور أن هذا التفكك يتجاوز كل فلسفة ليدب في مضمونها، لهذا تنبأ أن كتاباته لن تُفهم إلا بعد زمن طويل ليوم تقرا كفن.

ب - أن الحكمة هي الأسلوب الذي يلائم مزاج نيتشه، فالحكمة كما يقول "أوغن فنك" في كتابه، **فلسفة نيتشه**: " تفسح المجال لصياغة مقتضبة وجريئة ترفض ذكر الأسباب ".

ج- العبارات التي تبدو متناقضة، والتي تنشر في كل مؤلفاته، فتقف حجر عثرة وعائقا في وجه من يسعى الى تفسير دقيق لفلسفته، وتجعل من الصعب التعرف على الحقيقي وتميزه على الظاهري في السياق الفعلي لكل كتاب.

د - استعمال نيتشه لعبارات فرنسية، انجليزية، ايطالية، ويونانية و لاتينية، وهي عبارات تعترض القارئ خصوصا في نصوصه الأصلية، وتحتّم على دارسه معرفة فيلولوجية واسعة باللغات، بل وثقافة رفيعة المستوى.

ه- أن نيتشه حينما يكتب، فهو لا يستهدف الجميع كقراء بل يستهدف من يناديهم في كتاباته **"يا رفاقي"**، ويقول في **هكذا تكلم زاردشت** :« إن المبدع ينشد رفاقا، لا جثثا وقطعانا ولا مؤمنين.».

و- ثراء فكر نيتشه وخصوصيته الذي يسمح لكل التيارات على اختلاف مذاهبها أن تجد سندا لها، فالوضعين نسبوه إليهم، كذلك الحال عند النازيين، والمسيحيين والعدميين والدار ونيين والبرغماتيين، كل على حدى.

2. نقلا عن: يسري إبراهيم ، فلسفة الأخلاق ، فردريك نيتشه، ط.1، (لبنان: دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، 2005) ص.85.
3. بيير بودو، نيتشه مفتتا، تر. أسامة الحاج، ط1 (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع. 1996) ص.6.
4. Georges Morel, Nietzsche, Introduction à une première lecture II analyse d'une maladie, (paris : Aubier Montaigne, 1971). p.12.
5. Charles Murin, Nietzsche problème, généalogie d'une pensée. (Paris : Vrin, 1979.), p.12.
6. Karl Jaspers, Nietzsche. Introduction a sa philosophie, trad. Henri Niel, (Paris: **G**allimard. 1978.), p.21.
7. Karl Jaspers, Nietzsche. Introduction à sa philosophie, op. cit , p.21.
8. Ibid. p.21-22.
9. Daniel Halevy, Nietzsche, (Paris: éd. Bernard Grasset, 1944). p. 47.
10. أويغن فنك Eugen Fink: (1905-1975م) ، فيلسوف ألماني من أتباع ظاهريات "هوسرل" تتلمذ على يده في جامعة فرايبورغ، وصار مضادا له، وهو من كبار المهتمين بفلسفة نيتشه، من مؤلفاته "فلسفة نيتشه"، "اللعب كرمز للعالم".
11. أويغن فنك، فلسفة نيتشه، ترجمة. الياس بدوي، (دمشق: منشورات وزارة الثقافة والإرشاد. 1974)، ص. 4.
12. المرجع نفسه، ص.7.
13. أويغن فنك، فلسفة نيتشه، مرجع سابق، ص.6.
14. المرجع نفسه ، ص.7 .
15. المرجع نفسه، ص.8.
16. **تارمو كونا Tarmo Kunnas**: من مواليد 1942م من جنسية فنلندية، عرف بأعماله التي تعتني بمحور العلاقة بين الفاشية والأدب، نشر في فرنسا عام 1972م أطروحته التي نال بها درجة الدكتوراه والمعنونة بـ:" **Dieux, la Rochelle, Céline, Brasillach et la tentation fasciste** " ودراسات أخرى بالألمانية والفنلندية والانجليزية من بينها كتاب حول "هينرش مان "Heinrich Mann "، وهذه الدراسة حول نيتشه، درّس في السويد، ما بين سنتي 1974 -1977، ثم انتقل الى جامعة هلسنكي.
17. Tarmo Kunnas, Nietzsche ou l'esprit de contradiction, étude sur la vision du monde du poète. Philosophe. (Paris: nouvelles éditions latines 1980). p.p. 22-23.
18. Tarmo Kunnas, Nietzsche ou l'esprit de contradiction, op.cit, p.23.
19. Ibid. p. 23.
20. Ibid. p. 24.
21. يرى كونا أن الهدف من التقسيم المشار إليه هو استخلاص وحدة كل مرحلة، ثم إبراز التواصل الذي يحكم كل الفترات أو المراحل.
22. يرى كونا أن التأويلية الأخلاقية التي قام بها G. Lukacs تندرج ضمن الدراسات الماركسية، التي حاولت ان تجعل من نيتشه مجرد صورة كاريكاتورية.
23. وراسل يناقش فلسفة نيتشه، و يرى فيها حصيلة تاريخية تحتوي بعض الفواحش.
24. أما والتر كوفمان الذي ينتمي الى فترة " تجذير النازية" أو النزعة القومية، فقد حاول إصلاح ما توهمه الآخرون، و بالتالي تعديل صورة الفيلسوف، فركّز على الجانب الأخلاقي والعقلاني لفكر نيتشه.
25. أما ياسبرز وهيدجر، فالأول واعتمادا على التحليل الفلسفي التاريخي، والتحليل النفسي- البيوغرافي، أفرغ محتوى النص النيتشوي، قاصدا بذلك لم شتات نيتشه المعبر، حتى يعطي تفسيره النهائي، وهو أن نيتشه مؤمن، بل من أحسن المسيحيين، في حين الثاني أي هايدجر، فقد اعتمد في دراسته على مؤلفات نيتشه الأخيرة ركّز فقط على مواضيع أساسية: "إرادة القوة"، "العود الأبدي"، "العدمية". والهدف منه كان إيجاد التناسق cohérence الذي أهمله الشراح السابقيين.
26. Tarmo Kunnas, Nietzsche ou l'esprit de contradiction, op.cit. p 25
27. Ibid. p.26.
28. Charles Murin, Nietzsche problème, généalogie d'une pensée. op .cit, p.10.
29. W. Dilthey, le monde de l'esprit, trad. m. lemy (paris : aubier- mondaine. 1947). p. p. 370-371.
30. ibid. p.370.

31. Christophe Baroni, Nietzsche éducateur Du l'homme au Surhomme, ed. 1 , (paris : Edition FABERT, 2008.) , p. 145.
32. Christophe Baroni, Nietzsche éducateur Du l'homme au Surhomme, op . cit,p.p. 146-147.
33. Ibid, p. 148.
34. Gianni Vattimo, Introduction à Nietzsche, trad. fabienne zanussi, (paris: de Boeck et carsser, 1991.), p. 09.
35. Charles Murin, Nietzsche problème , généalogie d'une pensée op. cit, p.10.
36. أوديف ستيبان، على دروب زاردشت، تر. فؤاد أيوب، ط.1، (بيروت: دار دمشق، 1983). ص. 344.
37. حسن أوزال وآخرون، أفول الحقيقة الإنسان ينقض ذاته، ط.1 ، (المغرب: إفريقيا الشرق، 2004.). ص. 74.
38. Gianni Vattimo, Introduction à Nietzsche. op.cit. p.11.
39. Charles Murin, Nietzsche problème, généalogie d'une pensée, op.cit, p.31.
40. Martin, Heidegger, Nietzsche, trad, Pierre Klossowski, Vol.1 (Paris: Gallimard, 1971.), P.17.
41. Charles Murin, Nietzsche problème, généalogie d'une pensée, op.cit. p.38.
42. بييرق زيما، التفكيكة. دراسة نقدية، تعريب أسامة الحاج، ط.1، (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر التوزيع.1996.)، ص.69.
43. المرجع نفسه، ص.69.
44. ألكسندر نيهاماس، نيتشه الحياة كنص أدبي، تر. محمد هشام، ط.1، (المغرب: أفريقيا الشرق، 2008.) ص.ص. 08-09.